

الفتوة والفتيان: النشأة والتاريخ والتقاليد

الشيخ طه الوالي(*)

وذهب آخرون إلى تفسير الفتوة بمعنى الشجاعة والإقدام؛ وإذا أرادوا نعت الرجل بهاتين الخلتين قالوا: إنه «فتى» أو «ألفتى».

ومن ذلك قول متمم بن نويرة، الصحابي الشاعر:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتَى لِعَظِيمَةٍ
فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى وَلَكِنَّهُ «الْفَتَى»

ولعل أقدم ما وصل إلينا من أقوال العرب في الفخر بالفتوة بيت من الشعر قاله طرفة بن العبد، أحد أصحاب المعلقات من شعراء الجاهلية، وهو قوله معتداً بنفسه مزهواً بإقدامه وشجاعته وفروسيته:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنِ فَتَى
خِلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ

والمعنى: إذا تساءل الناس من يتحدى للمفازة ويقتحمها تبادر إلى ذهني أنني أنا المقصود وأنهم يعنونني ويقولون ليس لهذا الأمر سواك يا طرفة، فلم أكسل ولم أتردد بالقول: أنا لهذه المفازة ولست أتبلد عن سلوكها.

في المجتمع العربي، سواء في مشرقه أو مغربه، طبقة من الأفراد، بالرغم من أنهم جزء من ديموغرافية هذا المجتمع، هم في الواقع، ومن الناحية العقلية ناشزون عنه، وخارجون عليه، ونكاد نقول بأنهم يشكلون في داخل هذا المجتمع طبقة اجتماعية تتعاطف فيما بينها ولا تتآلف مع غيرها. هذه الطبقة دخلت في الحياة العربية منذ العصر الجاهلي واستمرت امتداداً مع الإسلام حتى العصر الحاضر وذلك تحت عنوان «الفتوة».

والفتوة صفة للشاب من كل شيء. وهي من الصفات الحميدة. بعضهم فسرها بالحرية والكرم. قال الشاعر:

إِنَّ الْفَتَى لَفَتَى الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
لَيْسَ الْفَتَى بِمُذْمَلِجِ الصُّبْيَانِ

وقال الخطيب، الشاعر المخضرم بين آخر الجاهلية وأول الإسلام

وَذَلِكَ فَتَى إِنْ تَأْتِيهِ فِي صَبِيغَةٍ
إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعِ

(*) باحث وكاتب - بيروت، لبنان.

ورجل بليد أو متبلد: إذا أثر فيه الجهل حتى يذهب به عن فطن الناس واحتياهم

- الفتوة وما قيل في مفهومها

أثناء كلامنا على الفتوة فإنه لا بد لنا من تقديمها من خلال المعنى الاصطلاحي الذي أخذ به جميع الذين تحدثوا في موضوعها سواء عبر المتصفين بها، أو عبر المفهوم الاصطلاحي الذي عرفوها به. والإطار الذي حدده ابن المعمار البغدادي الحنبلي لهذه الكلمة في كتاب «الفتوة» جاء في قوله:

«إعلم أن الفتوة اسم موضوع يُقال على أنحاء: أحدها أنه في اصطلاح العرف عبارة عن صفات محمودة، اتسم بها الشخص على وجه مخصوص. وامتاز بها عن أبناء جنسه فأوجبت له اسم «فتى» ويشهد لذلك قوله تعالى: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ». (سورة الكهف، الآية 13)

«إذ أوى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» (سورة الكهف، الآية 10)

فلما تميزوا عن أبناء جنسهم بالإيمان بالله، استحقوا اسم الفتیان.

إذن تكون الفتوة بنظر ابن المعمار، صفة في الشخص الذي يختلف عن سواء الناس بما يتحلّى به من صفات ينفرد بها، ولا يشاركه فيها إلا الذين هم على شاكلته. وهؤلاء يندرجون معه تحت اسم الفتوة ومفهومها، ويستحق واحد منهم اسم «الفتى» وجماعتهم اسم «الفتیان» وبذلك تكون هذه الجماعة ما يمكن أن يطلق عليه اسم العصبة، أو العصابة، أو حتى الطائفة. ولكن ليس بالمفهوم الديني أو المذهبي أو المهني، وإنما بالمفهوم الطبقي الاجتماعي.

- الفتوة في التاريخ

بالرغم من أن الفتوة بمعناها الاصطلاحي الذي

يدور في المفهوم الذي قدمناه قد شاعت في أيام العباسيين، إلا أن الذين تعاطوها آنذاك حرصوا على أن يجعلوها لها جذوراً تاريخية ترجع إلى أيام النبي إبراهيم عليه السلام الذي عاش قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين. هذا ما قاله ابن المعمار الحنبلي الذي عني بدراسة هذه الحركة. فقد ذكر في كتابه «الفتوة»:

«فأما مبدأ الفتوة ومنشؤها إبراهيم الخليل، خليل الرحمن، وهو أبو الفتیان، حيث كسر الأصنام وأعرض عن الأنام حين قال له جبريل: هل لك حاجة؟ وقد ألقوا به إلى النار، فقال: أما إليك.. فلا، فتولى الحق قضاء حاجته بنفسه فقال: «يَأَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبرَاهِيمَ». (سورة الأنبياء، الآية 69)

ومدحه فقال:

«إِنَّ إِبرَاهِيمَ خَلِيلٌ أَوَّاهُ» (سورة هود، الآية 75) ووصف أضيافه أنهم قوم مكرمون، فقال: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» (سورة الذاريات، الآية 24)

لما قام على خدمتهم ولقيهم بوجه طلق. ولم تنزل الفتوة تتصل بالأنبياء، والصديقين، حتى وصلت إلى نبينا عليه السلام. وللشيعة عن بعض أئمتهم تقاليد تدعم هذا الرأي وتزيد عليه، تقول هذه التقاليد إن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قال: «أفتاكم علي» فقال علي: يا رسول الله، وما الفتوة؟ فقال عليه السلام: «هي شرف يتشرف به أهل النجدة والسباح، وأنت يا علي فتى وابن فتى وأخو فتى» فقال علي: يا رسول الله، من أبي، ومن أخي من الفتیان، فقال عليه السلام: «أبوك إبراهيم الخليل، خليل الرحمن، وأخوك أنا، وفتوتي من فتوة أبيك، وفتوتك مني، وسلم إليه سلاحه يوم غزوة حنين».

نبادر إلى القول بأن هذه الرواية التي ذكرناها هنا، إنما هي من قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به، إذ إن إبراهيم الخليل لم يعرف عند رواة الحديث باسم أبي

الفتيان وإنما عرف بأبي الأنبياء. وأياً ما كان فإنه فوق كل ذي علم عليم.

- الفتى علي وسيفه ذو الفقار

عندما جاء ابن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» على ذكر وقعة «أحد» التي انتهت لغير صالح المسلمين في حربهم لكفار قريش قال = لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: إحمل عليهم، فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: إحمل عليهم، ففرق جمعهم وقتل شيبة بن مالك، أحد بني عامر بن لؤي، فقال جبريل - من الملائكة - يا رسول الله، إن هذه للمؤاساة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه مني وأنا منه» فقال جبريل: وأنا منكها، قال: فسمعوا صوتاً:

«لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَارِ
وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ

وعندما أورد الدكتور إبراهيم بسيوني في كتابه «الإمام القشيري» عن كتاب ابن جرير الطبري المذكور ذيلاً بقوله: مع احترامنا للطبري، إلا أنه كما يرى بعض النقاد، كان لا يدقق كثيراً في الروايات المتصلة بآل البيت، ووجهت إليه التهمة بذلك. نقول: السيف «ذو الفقار» أهده المقوقس عظيم القبط في مصر، للنبي صلى الله عليه وسلم. وفي بعض الأخبار، إنه أصابه في غنيمة خيبر الحصن الذي كان لليهود بالقرب من المدينة المنورة.

وجدير بالذكر أن هذا الرجز، ما زال يتردد على السنة المتبارزين بالسيف والترس (ولعبة الحكم المعروفة عندنا) فإنهم عندما يتبادرون إلى المبارزة بروح رياضية، يفتتحون مواجهتهم بعضهم لبعض بعد لثم صفحة السيف بالقول:

«لَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ
وَلَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَارِ

ثم يأخذون السيف ويهزونه بأيديهم هاتفين بصوت مرتفع: «صحائف الإمام علي». . . وهي عبارة تحمل معنى التحية للإمام المذكور باعتباره أول الفتيان في حركة الفتوة.

وجدير بالذكر أن الخصال التي يفترض بالفتى أن يتحلّى بها لم تكن دائماً واحدة، بل إنها تبدل وتتغير تبعاً لمفهوم الفتوة والمنتتمين إليها من الطبقات الاجتماعية المختلفة، بمعنى أن الفتوة والفتيان لها مفاهيم تختلف باختلاف النظرة إليها. ذلك أن هناك فتوة خاصة بأهل التقوى وأصحاب الدين، وأخرى خاصة بالمتصوفين أهل الطريق، وثالثة يتميز بها الخارجون على القانون والمستهترون بأمن المجتمع والعابثين بالراحة العمومية؛ هذا بالإضافة إلى الفتوة الرسمية التي رفعت شعارها الدولة القائمة لاستقطاب الفتيان واحتواء نشاطهم لصالحها.

أما فتوة أهل التقوى وأصحاب الدين، فإن مبادئها لخصها لنا حديث منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، رواه جعفر الصادق، من أئمة الشيعة الاثني عشرية، عن جده، يقول جعفر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لفتيان أمتي عشر علامات: قال: يا رسول الله، وهل لأمتك فتیان؟ قال عليه السلام «نعم»، وأن الفتوة الأولى من فتوة أمتي» قال: وما تلك العلامات يا رسول الله؟ قال عليه السلام:

- 1 - صدق الحديث
- 2 - والوفاء بالعهد
- 3 - وأداء الأمانة
- 4 - وترك الكذب
- 5 - والرحمة لليتيم
- 6 - وإعطاء السائل
- 7 - وبذل النائل

8 - وإكثار الصنائع

9 - وقرى الضيف

10 - ورأسهن الحياء

المذكور كان من هؤلاء الفتيان «نجدة» القائد الأعلى للجيش الأموي. و«أفلح» صاحب الخيل، أي قائد الفرسان و«درّي» صاحب الشرطة، و«ياسر» و«نمّام» صاحباً النظر على الخاص (أي الشؤون الشخصية للخليفة).

وتكرّرت لفظتا فتى وفتاة في النقائش المرقومة على شواهد القبور في الأندلس، وكذلك ورد لقب «الفتى الكبير العامري» في نص إنشاء بتاريخ 377 (هـ) في إسبانية، وكذلك «الفتى الكبير نمّار بن محمد العامري» بنقش مؤرخ في 395 (هـ) وذلك على صندوق من العاج في إسبانية أيضاً. والغالب أن هذين اللقبين كانا من ألقاب المهالك في الأندلس الإسلامية. أما ابن المعمار الحنبلي فقد قدّم تعريفاً آخر للفتى والفتوة وذكر في إطار هذا التعريف عشر علامات أخرى، وذلك حينما قال في كتابه «الفتوة»: ينبغي أن الفتوة:

1 - تعاضد

2 - وأخوة

3 - وصديق

4 - ومروءة

5 - وليست بأكل الحرام

6 - وارثكبات الآثام

7 - بل هي عبادة الرحمن

8 - وترك العدوان

9 - ومخالفة الشيطان

10 - والعمل بالقرآن

وقد نقل لنا أبو الریحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى في عشر الثلاثين وأربعماية من الهجرة في كتابه اللطيف الطريف «الجاهر في معرفة الجواهر» الحدود التي تفصل بين المروءة والفتوة وفقاً للقواعد الخلقية عند أهل السنة والجماعة وذلك حيث قال:

«المروءة تقتصر على الرجل في نفسه وذويه وحاله. والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره. والمرء لا يملك غير

هذه العلامات العشر تعكس في الواقع المواصفات التي وضعت لأهل الفتوة، وربما نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أجل إعطائها مدداً من المكانة الروحية للنبي صلى الله عليه وسلم ليزيدها قوة وتأكيذاً.

على أننا نميل إلى الرأي القائل أن لفظة «الفتى» التي وردت في هذا الحديث قد استعملها النبي صلى الله عليه وسلم بدلاً من كلمة «العبد» وذلك في معرض التعامل مع الخدم لكيلا يخاطبوا بما يجرح كرامتهم أو يعقد مشاعرهم النفسية. فقد جاء في الحديث الشريف قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «لا يقل أحدكم عبيدي وأمتي، ولكن فتاتي وفتاتي». وقد كان المسلمون في بلاد الأندلس يلتزمون بهذه الملاحظة النبوية، ويطلقون على أرقائهم من المهالك الصقالبة (الأوروبيين) اسم «الفتيان» وهو الاسم الذي كان إلى ذلك الوقت يقابل كلمة «المهالك» في بلاد الشرق العربي. وفي الأخبار الأندلسية تبرز كلمة «فتى» في أكثر من مناسبة، لا سيما عندما كثر اعتماد الخلفاء الأمويين في الأندلس على عنصر الصقالبة، وكان هؤلاء أخلاطاً من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارديين الإيطاليين. وكان معظمهم في الأساس أطفالاً يقتنصهم القراصنة والنحاسون تجار الرقيق ويبيعونهم من المسلمين في الأندلس. ويقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه «أعمال الاعلام في من بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» أنه كان بمدينة الزهراء عند وفاة الناصر لدين الله 3750 «فتى»، وعدد النساء بالقصر 6750 «فتاة». وتوصل بعض هؤلاء الفتيان إلى أعلى المراكز في الإدارة والجيش، وتمتعوا بالسلطة والنفوذ في البلاط وكذلك في الأوساط الاجتماعية الأندلسية. ففي عهد الناصر لدين الله

نفسه وقينته التي لا ينزع فيها أنها له، فإذا احتمل مغارم الناس، وتحمل المشاق في اراحتهم ولم يضرّ بما أحل الله له وحرّمه على من سواه فهو الفتى الذي اشتهر بالقدرة عليها وعرف بالحلم والعفو والرزانة والاحتمال والتعظيم بالتواضع، ترقى إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها، وسود باستحقاق لا عن خلّو دار» - ثم يقول البيروني:

«لهذا حذت الفتوة بأنها بشر مقبول، وتأمل مبدول وعفاف معروف، وأذى مكفوف، ... قال الشاعر:

وَلَيْسَ فَتَى الْفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى
لِشَرِّ صَبُوحٍ أَوْ لِشَرِّ غُبُوقٍ!

ولعلنا نستطيع الاكتفاء بما قاله ابن المعمار الحنبلي وما نقلناه عن غيره في بيان مفهوم الفتوة والفتيان عند أهل السنة والجماعة. ولن يطمع بالزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، فإنه يمكنه الرجوع إلى المؤلفات الكثيرة المعنية به من أجل تحقيق رغبته.

وأهل الطريق من المتصوفة بدورهم ادلوا بدلوهم في تحديد مقومات الفتوة والصفات التي يجب على الفتى أن يلتزمها ويتميز بها. وإننا نستطيع أن نلتمس عند الإمام عبد الكريم القشيري هذه المقومات والصفات التي تناولها بالتفصيل في «رسالته» تحت عنوان مستقل هو «الفتوة» بين لنا عبر هذا العنوان رأي أهل الطريق، وهو من أقطابهم، كيف يكون التخلّق بأخلاق الفتيان وذلك في إطار المعطيات الخلقية التالية:

الصفح عن عثرات الإخوان، وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك، وأن لا تحاصم أحداً، وأن لا تنافر فقيراً، ولا تعارض غنياً، وأن يستوي عندك المقيم والطارئ، وأن تترك ما تهوى لما تخشى، وأن تكفّ الأذى، وأن تبذل الندى، وأن لا تدخر، أو تعتذر، وأن تظهر النعمة، وتستر المحنة، وألا تربح على صديقك، وأن تؤثر حين تعطى، وتشكر حين تمنع.

وفي مناسبة ثانية قال القشيري: الفتوة عمادها القلب السليم، الامتثال الصادق، والبعد عن الشطط، والجهالة، والتكبر، والبغض.

ثم إنه يبين لنا في نفس رسالته الفرق بين عبودية العابد وبين فتوة الفتى وذلك بقوله: القصاص مشروع والعفو خير، فمن جنى إلى استبقاء حقه فمسلم له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن، فالأول: صاحب عبادة بل عبودية، والثاني: صاحب فتوة بل حرية.

ومن الملاحظ أن القشيري قد تناول مفهوم الفتوة والفتيان خلّواً من الالتفات إلى الروايات التي رددتها بعض الأسانيد المذهبية ولم يلتفت من قريب أو بعيد إلى القصة التي حكّاها الطبري في تاريخه عن المحاورة التي نسبت إلى جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم خلال معركة أحد بشأن سيف علي بن أبي طالب ذي الفقار وإطلاق لقب «الفتى» على هذا الصحابي الجليل. رضي الله عنه تنوياً بالشجاعة التي أبدّاها آنذاك.

ومن هذا المنطلق المتشبع بالمفهوم الإسلامي على عقيدة أهل السنة والجماعة حدد القشيري مبادئ الفتوة ومواصفات الفتيان.

وكما أعرض القشيري عن المفهوم الطبري للفتوة والفتيان فإنه في نفس الوقت لم يتوان عن مهاجمة المتصوفين القائلين بنظرية الحلول مثل الحلّاج الذي أعدم بتهمة الإلحاد والزندقة سنة 310 هـ (922 م) فلقد اعتبر الحلّاج إبليس وفرعون من الفتيان ووجهة نظره في ذلك أن إبليس قد عصى الله لأن الله شاء أن لا يطيع، فهو بهذا قد ضحى بنفسه في سبيل تنفيذ المشيئة الإلهية والامتثال لإرادة الله العليا. فقد قال الحلّاج في كتابه «الطواسين» إن سجدت سقطت عن بساط الفتوة، وأن فرعون أغرق في اليمّ ولم يرجع عن دعواه، لأنه لم يقرّ بالوساطة البتّة.

فكان رد القشيري على هذه النظرية «الحلاجية» وإن لم يذكر الحلّاج بالاسم بدحضها مبيّناً أن كلّاً من

من التضامن بين الأعضاء الصالح المشترك الوحيد
الواجب إنماؤه. « ا. هـ.

ولعل أهل هذه الفتوة وجدوا في الصعاليك من
شعراء الجاهلية مثلهم الأعلى، فاحتذوا بهم حذو
الفتوة بالفتوة. ومن هؤلاء الصعاليك الجاهليين عروة
بن الورد العبسي الذي كان، كما يقول المثل السائر في
زماننا «كسأباً وهاباً». قال عروة، وكان يعرف بعروة
الصعاليك:

أَقْلِي عَلَى اللَّوْمِ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
وَنَامِي، وَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي ذَاكَ فَاشْهَرِي
لَحَى اللَّهِ صُغْلُوكَا إِذَا جُنَّ لَيْلُهُ
مُصَافِي الْمَشَاشِ آلِفَا كُلِّ مَجْزَرٍ
وَلَكِنْ صُغْلُوكَا صَفِيحَةً وَجْهِهِ
كَمِثْلِ شَهَابِ الْقَاسِرِ الْمُتَنَوِّرِ
مُطْلَأًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمُنِيحِ الْمُشْهَرِ
وَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
تَشْوِيقُ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنْظَرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا
حَمِيداً، وَإِنْ يَسْتَفِنِ يَوْمًا فَاجْدِرِ
بَرِيحٍ عَلَى اللَّيْلِ أَضْيَافَ مَا جِدِ
كَرِيمٍ وَمَالِي سَارِحاً مَالٌ مُقْتَرِ

ونسب إلى عروة شعر يصف فيه الصعلكة ويسمى
نفسه صعلوكاً وهو قوله:

لَحَى اللَّهِ صُغْلُوكَا مُنَاهُ وَهَمُّهُ
مِنْ الدُّهْرِ أَنْ يَلْقَى لَبُوساً وَمَطْعَمًا
يَنَامُ الضَّحَى، حَتَّى إِذَا لَيْلُهُ انْتَهَى
تَنَبَّهَ مَثْلُوجَ الْفُؤَادِ مُورِّمًا
وَلَكِنْ صُغْلُوكَا يُسَاوِرُ هَمُّهُ
وَيَمْضِي عَلَى الْهَيْجَاءِ لَيْثًا مُصَمَّمًا

إبليس وفرعون ارتكبا أعمالاً تناقض قيم الفتوة،
وذلك أنها أظهرتا فساد النية، وخراب القلب، وسوء
القصد؛ وحين وقع إبليس في الجهل، بزعم أن النار
أفضل من الطين معتبراً بالظواهر دون الجوهر، وحين
وقع فرعون في اللجاجة والتحدّي بأن طلب إلى
هامان أن يبني له صرحاً ليلغ أسباب السماوات
العلّى، حيناً تردّياً في هذه المهام التي ابتعد عن قلبيهما
أدنى ارتباط بالفتوة التي عمادها القلب السليم،
والامتثال الصادق، والبعد عن الشطط والجهالة،
والتكبر البغيض.

- الفتوة المتحدية للمجتمع والنظام العام

إذا كانت الفتوة قد لبست أول الأمر جبة العلماء
من أهل التقوى والصلاح، أو خرقة المتصوفين من
أهل الطريق والزهادة، فإنها ما لبثت أن تجلبت فيما
بعد بأردية الشاز عن روح الجماعة، ورمت قفاز
التحدي بوجه القانون والنظام العام ورفعت شعار
العبارة، والدعارة، والشطارة والصعلكة، وهي أسماء
أصبحت كلها مرادفة لكلمة الفتوة التي تنكرت لكل
ضوابط الالتزام بالقوانين المرعية والانسجام مع
المجتمع الذي كان يحيط بها وتعيش فيه.

هذه الفتوة، كما يقول لويس غارديه (Louis
Gardet) في كتابه «أهل الإسلام» (Les Hommes de
L'Islam): «يمكن قرنها بفضيلة المروءة العربية
القديمة، في مطلع العهد العباسي، وفي العراق -
فارس خاصة تولدت عن هذا المبدأ زُمر وثيقة
الالتحام، زُمر سباب أعزب غالباً، نوع «من
رابطات» مستقلة مؤسسة على التعاون وتقاسم الزاد،
وقد يكون للفتيان مهنة، وقد لا يكون، ولا تعتمد
الرابطة مطلقاً على نسب عائلي أو قبلي، أو حتى
عرقى، كانت أحياناً، عند بدء تكوينها على الأقل،
تسمو على الانتساب الديني، وأحياناً على العكس،
كانت ترسخ فيه. لكنها كانت تتميز بتحزب يجعل

فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْكَرْبَةَ يَلْقَاهَا
كَرِيماً، وَإِنْ يَسْتَفِنِ يَوْمًا قَرِيبًا

هذه الفتوة هي التي انطبعت صورتها في أذهان
الناس وأصبحت بمفاهيمها القائمة على التحدي
والعنف، وهؤلاء هم الفتيان الذين قُدت قلوبهم من
الصخور العاتية وتحكمت في ممارساتهم جبالاتهم
القاسية. ويمكن القول بأن الفتوة ضمن هذه المفاهيم
والممارسات كانت العنوان الذي استقطب تحته جميع
الأشخاص الذين وصفوا بأنهم الخارجون على النظام
العام والمتحدون للقانون والعاشون بأمن المجتمع
والمشغوبون للقلق والاضطراب في أوساط الناس
العاديين، وأنهم يعيشون على حساب أهوائهم
الشخصية غير عابئين بالرأي العام الذي يكتنفهم
ويحيط بهم.

أجل هكذا كانت الفتوة وتحت لوائها نفشت حركة
الفتيان الذين عرفهم الناس بأسماء متعددة ألفاظها
ولكن دلالاتها تبقى واحدة. فالفتيان هم: الدّعار
والدّعار والعيارون والشطّار والأوباش والأحداث.

هذه الأسماء كلها تعكس نفس المواصفات التي
عرفها الفتيان في كل البلدان وعبر مختلف الأزمان. .
وها هو أبو القاسم أحمد بن علي التميمي البغدادي
صاحب «حكاية أبي القاسم البغدادي» الذي عاش
في القرن الرابع الهجري وزعم أنه هو الذي أسس
الشرطة، وبوّب العبارة ووضع لهذه وتلك تقاليدهما
وآدابهما وشروطهما، ها هو يقدم نفسه بنفسه ويقول:
«أنا الموج الكدر، أنا العقل العسر، أنا النار، أنا
العيار، أنا الرحى إذا استدار، أنا الذي أسست
الشرطة، وبوّبت العبارة، أنا فرعون، أنا هامان، أنا
النمرود، أنا الشيطان. .».

ويمكن القول بأن هؤلاء الفتيان، على اختلاف
الأسماء التي اشتهروا بها، كان يجمع بينهم قاسم
مشترك ألا وهو «الرفض» أو ما يمكن أن نطلق عليه

الكلمة الدارجة اليوم «الاحتجاج» وكذلك فإن البؤر
التي كانوا يجتمعون فيها عرفت دائماً بأنها مستودع غني
بـ «الأوباش» الذين يهون المغامرة، ويكونون دائماً
مصدر كل شغب، وعلى أهبة للشورة والمهرج وشق
عصا الطاعة، وهم من أحسن الزبائن لرجال الأمن
والشرطة لا سيما عندما تكون الدولة قوية. أما إذا
ضعفت الدولة فإن هؤلاء الرجال يتحولون هم
أنفسهم إلى هدف لتلك الفئات التي يطيب لها إثبات
وجودها وتأمين مغامرها على حساب سلامة المجتمع
واستقرار الأمن بين الناس.

هذه الفتوة «الرافضة» أو «المحتجة» يمكن نظيرها
في ضوء الحركات الفوضوية في عصرنا، إذ إن مبادئها
وأخلاقياتها، وميثاق الشرف فيما بينها، كل هذه
المفاهيم والقيم كانت في خدمتها وليس العكس.
ولذلك فإنه من الخطأ المعادلة بين هذه الفتوة وبين
الفروسية (Chevalerie) التي كانت أحد عناصر
النظام الإقطاعي العسكري الديني في أوروبا إبان
العصر الوسيط، عندما كان المنتظمون في سلك هذه
الفروسية يكرسون سلاحهم وقوتهم ونفوذهم لحماية
الضعيف والدفاع عن حقه ورد غائلة العدوان عليه.
بيد أننا نبادر إلى القول بأن التماثل ربما تحقق بين
بعض «الفتيان» في الشرق العربي وبين بعض
«الفرسان» في البلاد الغربية ولكن هذا التماثل كان
عرضياً ولم يكن أصيلاً. ولعلنا نستطيع أن نضرب
على هذا التماثل مثلاً بواحد من الفتيان الذين
اضطرب بهم حبل الأمن في بغداد إبان القرن الرابع
الهجري، وهو ابن حمدي الذي اشتهر آنذاك باسم
لص بغداد الشريف. وفيما يلي خبر هذا اللص
الشريف كما جاء في حكاية لبعض التجار البغداديين
يقول فيها «إنه خرج بسلع له يريد واسط. وكان
البريدي بها والدنيا مفتتة جداً، فقطع عليه وعلى
الكار (السفينة) الذي كان فيه لص في الطريق يقال
له ابن حمدي، فأفقره، فسهل عليه الموت، وطرح

شارلوك هولمز تارة ثانية، حتى يصح لنا أن نقول مع المثل السائر: ما أشبه الليلة بالبارحة!

والغريب أن هذه الفتوة التي نتحدث عنها الآن كان «فتيانها» يسترزون من الناس أموالهم ويفرضون عليهم «الخوات» - الإتاوات للحماية - ومع ذلك حرصوا على أن يعتبروا في المجتمع من أصحاب الحمية والشرف!

ومما ينقل عن الجاحظ في تبرير تصرفات هؤلاء الناشئين عن التوازن الاجتماعي في بيئتهم المحلية ومحيطهم حكاية لطيفة ظريفة رواها القاضي أبو علي المحسن بن علي، التنوخي الكاتب الأديب المتوفى سنة 384 هـ (994 م) في كتابه الممتع «الفرج بعد الشدة» وفيها حوار جرى بين تاجر قاده سوء طالعاه إلى العشار بشرك أحد العيارين فاستشهد بما جاء في كتاب «الصوص» للجاحظ وهو يبرر للتاجر ما يقوم به من سلب مال التجار الذين خانوا أماناتهم ومنعوا زكاة أموالهم. وإني لا أرى حرجاً في إعادة رواية هذه الحكاية هنا راجياً أن يجد القارئ فيها لونا من منطق العيارين من أهل الفتوة في تعاطيهم مع تقاليدهم التي خرجوا بها عن مألوف التقاليد الاجتماعية في أيامهم وزمانهم.

قال أبو علي المحسن بن علي القاضي التنوخي:

«كنت مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سياب الكردي، فقطع علينا الطريق، وكان بزيّ الأمراء لا بزيّ القطّاع، ففريت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدل على فهم وأدب، فداخلته، فإذا برجل فاضل، يروي الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه وعملت في الحال أبياتاً أمدحه بها، فقال لي: لست أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن أعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم أنك قلته، وأنشد لي بيتاً.

قال: فعملت في الحال إجازة له ثلاثة أبيات،

فقال لي: أي شيء أخذ منك لأرده إليك؟

نفسه لابن حمدي، لما سمع عنه من نخوة ومروءة. يقول التاجر:

وكنتم أسمع وأنا ببغداد أن ابن حمدي هذا فيه فتوة وظرف، وأنه إذا قطع الطريق، لم يعرض لأرباب البضائع اليسيرة التي تكون دون الألف درهم، وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليه، وترك شطر ماله في يديه، وأنه لا يفتش امرأة، ولا يسلبها، وحكايات كثيرة مثل ذلك، فاطمعتني ذلك في أن يرق لي، فصعدت إلى الموضع الذي هو جالس فيه وخاطبته في أمري، وبكيت ورقفته ووعظته، وحلفت له أن جميع ما أملكه قد أخذه، وأني احتاج إلى أن أتصدق من بعده. فقال لي: يا هذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمراً عظيماً أعظم مما يرتكبه السلطان... (المقصود بالسلطان هنا الخليفة أبو اسحاق إبراهيم المتقي لله ابن المقتدر وكانت مدته من سنة 329 إلى سنة 333 هـ التي خلع فيها من الخلافة).

وكانت نهاية الحوار بين التاجر وهذا «اللص الشريف» أن هذا الأخير استيقظت فيه نخوة الشهامة واستحكمت بضميره فضائل المروءة فبادر إلى إعطاء التاجر شطر ماله الذي كان قد استلبه منه وزاد على ذلك بأن أرفقه بواحد من عصابته لايصاله إلى مأمنه... الأمر الذي حل هذا التاجر على الإعجاب بابن حمدي، لص بغداد الشريف، والدعاء له بالخير والتوفيق، وراح يردد على البغداديين ما لقي من هذا اللص الشريف من الرفق والمروءة وحسن الصنيع والروح الإنسانية العالية.

وهذا الفتى، ابن حمدي، لص بغداد الشريف ليس هو الذي تكرر في أيامنا باسم «اللس الشريف» متمثلاً بالمثل السينائي أرسين لويين تارة ونظيره

درهم وعشرة دنانير، وحالت عليك السنة، فكم تخرج منها للزكاة، فما أحسن أن يجيب.
ثم قال آخر: إذا كان معك متاع للتجارة، ولك دين على نفسين، أحدهما مليء والآخر مُعسر، ومعك دراهم، وقد حال الحول على الجميع، فكيف تخرج زكاة مالك؟

قال: فما فهم السؤال، فضلاً أن يتعاطى الجواب.
فصرفهم، ثم قال لي: بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ؟ وإن هؤلاء التجار ما زكّوا قط؟ خذ الآن الكيس، فانت أولى به.

فأخذته، وساق القافلة ليتصرف بها.
فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تنفد معنا من يبلّغنا المأمّن، كان لك الفضل. ففعل ذلك - انتهت الحكاية -

أقول: هذه الحكاية التي تداخلت في ثناياها المعاني والأفكار والخواطر ما بين الأدب والفقه والفلسفة، قد جعلت أبا عثمان الجاحظ هدفاً لسهام النقد، بل الهجوم اللاذع عليه من قِبَل العلماء الملتزمين الذين وصموه بالتحلل من القيم الأخلاقية والدينية والقومية. ومن هؤلاء العلماء أحد أئمة أهل السنة والجماعة أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة 429 هـ (1037 م)، فلقد تناول هذا العالم الجاحظ في كتابه «الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية» ومرّغ سمعته في وحول الاتهامات الجارحة حيث قال وهو يتحدث عن «كتاب اللصوص» الذي اعتمد عليه ذلك العيّار في تبرير مصادرة أموال التجّار والتصرف بها تصرف المالك في ملكه: قال البغدادي «... وأما كتبه المزخرفة، فأصناف، منها كتاب في حيل اللصوص. وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة... إلى أن يقول...». ومن افتخر بالجاحظ سلمناه إليه قول أهل السنة في الجاحظ، كقول الشاعر فيه:

قال: فذكرت له ما أخذ مني، وأضفت له قماش رقيقين كانا لي فردّ لي جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها، كيساً فيه ألف درهم، فوهبه لي، فجزيته خيراً ورددته عليه فقال: لمّ لا تأخذه؟

فورّيت عن ذلك فقال: أطبّ تصدّقني قلت: وأنا آمين فقال: أنت آمن.
فقلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعة ظليماً، فكيف يحل لي أن أخذه؟

فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب «اللصوص» عن بعضهم؟

قال - أي الجاحظ - إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء تستحقون أخذ الزكاة بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا.

قلت: بلى قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يُعلم أن هؤلاء ممن استهلكت الزكاة أموالهم؟

فقال: لا عليك، فأنا أحضر هؤلاء التجار الساعة، وأريك بالدليل الصحيح أن أموالهم لنا حلال.

ثم قال لأصحابه، هاتوا التجار، فجاءوا.
فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتجر في هذا المال الذي قطعنا عليه؟

فقال: من كذا وكذا سنة...

قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟ فتلجلج، وتكلم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها، فضلاً عن أن يخرجها.

ثم دعا آخر، فقال له: إذا كان معك ثلاثمائة

لَوْ يُنْسَخُ الْخَزِيرُ مَسْخَأً ثَانِياً
مَا كَانَ إِلَّا دُونَ قُبْحِ الْجَاظِ
رَجُلٌ يُثُوبُ عَنِ الْجَحِيمِ بِنَفْسِهِ
وَهُوَ الْقَذَى فِي كُلِّ طَرَفٍ لَاحِظٌ!

- الفتيان يوظفون فتوتهم في الحركات السياسية والصراعات الدينية

إن التحلل من القيم المثالية، والأخلاقيات الاجتماعية والابتعاد عن ضوابط الالتزام بالنظام العام، جعل من طبقة الفتيان والذين هم من فصيلتهم وعلى شاكلتهم احتياطياً ذا شأن بالنسبة للحركات الباطنية التي كانت تجندهم للوثوب على الحكام المسلمين أهل السنة والجماعة، واغتيالهم والقيام بأعمال تخريبية ضد المصالح العامة والمؤسسات الأهلية والرسمية. ولذلك فإن المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (Louis Massignon) لم يخطئ حين أبرز العلاقة التي جمعت في التاريخ الإسلامي بين الفتوة وبين الدعوة الإسماعيلية التي كانت واحدة من الحركات الباطنية التي شقي بها الإسلام والمسلمون لعشرات من السنين المنهكة.

ومن الامارات الدالة على استعانة الحركات الباطنية لجماعة الفتيان ما ذكره أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ (1200 م) في كتابه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» من أنه في سنة 416 هـ (1025 م) انبسط العيارون انبساطاً أسرفوا فيه، وخرقوا هبة السلطان، وواصلوا العفلات وأراقوا الدماء... وكان صاحب مصر (الظاهر لإعزاز دين الله العبيدي) قد أنفذ إلى يمين الدولة، محمود بن سبكتكين (الغزنوي، مكسر الأصنام) خلعة مع أبي العباس أحمد بن محمد الرشيد الملقب زين القضاة إلى الخليفة لاستئذنه إلى الدعوة الإسماعيلية وإغرائه بخلع طاعة الخليفة العباسي القادر بالله... فجلس القادر بالله في يوم

الخميس لتسع بقين من جمادى الآخرة لأبي العباس الرشيد بعد أن جمع القضاة والشهود والفقهاء والأمثال، وأحضر أبو العباس ما كان حمله صاحب مصر، وأدى رسالة يمين الدولة بأنه الخادم المخلص الذي يرى الطاعة فرضاً وبرا من كل ما يخالف الدولة العباسية... فلما كان فيها بعد هذا اليوم أخرجت الثياب إلى باب التوي (أحد أبواب بغداد)، وكان هذا الباب «باب العتبة» أيضاً، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد) وحفرت حفرة طرح فيها الحطب ووضعت الثياب فوقه، وحرقت بالنار، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز والحجاب حاضرون والعوام ينظرون، وسبك المركب فخرج وزن فضة أربعة آلاف وخمسة وائتين وستين درهماً، فتصدق به على ضعفاء بني هاشم.

فكانت النتيجة أن أوعز الإسماعيليون إلى عملائهم في بغداد أن يهجموا العيارين (الفتيان المرتبطين بالعبديين الإسماعيليين) فانطلق هؤلاء في حوارية بغداد وأزقتها وأسواقها التجارية... وكيسوا دور الناس نهاراً وفي الليل بالمشاعل والموكيات (التظاهرات) وكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره ويستخرجونها منه بالضرب، كما يفعل المصادرون، ولا يجد المستغيث مغيثاً، وقتلوا ظاهراً وانبسطوا على الأتراك، وخرج أصحاب الشرط من البلد، وقتل كثير من المتصلين بهم، وعملت الأبواب وأوقفت على الدروب، ولم يغن ذلك شيئاً وأحرقت دار الشريف المرتضى على الصراة (وهي دار علم للشريف المرتضى كانت بالجانب الغربي من بغداد)... وكان هذا الاختلاط من شهر رجب سنة 415 إلى آخر سنة 416 هـ... .

- وداوني بالتي كانت هي الداء

تجدر الإشارة إلى أن الدعوة الإسماعيلية لم تكن

حتى أصبحت الفتوة تجمع تحت لوائها أشتاتاً من الزعامات الفردية ذات الأهداف الشخصية وهذا ما أشار إليه ابن المعمار بقوله: ولم تزل الفتوة تنتقل، هلمّ وجراً إلى عصرنا هذا - (أي في نحو العقد الخامس من القرن السادس الهجري - حتى تفرّعت وصارت بيوتاً وأحزاباً وقبائل. كالرهاصية (نسبة إلى عمر الرهاص أو ابن الرهاص) والشحينية (؟) والخليلية (نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل) والمولدية (؟) والنسوية (نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل) لما حدث بينهم من الاختلاف، وكل منهم ذهب إلى رأي. ولقد كانوا يحكمون ببطلان من لم يحاضروه، وينقلون من ينقلون عنهم إنكاراً، فلما لم يقضوا في الفتوة بأحكامها، ولم يقضوا فيها بأثر السلف الصالح، وينسجوا على منوالهم، كثر الاختلاف بينهم، وقيل:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَقَ لَهُمْ
إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ

- الناصر لدين الله يؤم الفتوة ويجمعها تحت لوائه

بعد أن تفاقمت الفوضى بين تنظيمات الفتوة، وتشرذمت فرق الفتيان وأصبحوا عند الناس يعرفون باسم «الأوباش» و«الذّعار» قبض الله للخلافة العباسية واحداً من فحول الرجال، هو الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الذي أصدر أمراً خليفياً بتأمم حركة الفتوة بجميع تشكيلاتها الطائفية وتنظيماتها الحزبية وعصبياتها البلدية والحرفية وأنعم نظره التام وفحصه الكامل في النسب، واختار كبيراً في الفتوة، الشيخ الصالح الزاهد العابد السعيد عبد الجبار بن صالح البغدادي، لما كان عليه من حسن السيرة والطريقة... استدعاه الناصر لدين الله وتفتى إليه، وليس سراويل الفتوة منه، وبادر على التّو إلى إنشاء فتوة البلاط ودعا إلى الدخول فيها جميع أمراء

الوحيدة من بين الفرق الباطنية التي تعاطت مع الفتوة الفوضوية من أجل النكاية بخصومها وتحقيق مآربها السياسية، ذلك أن الهيمنة الشيعية مدت هي الأخرى رواق استقلالها على هذه الفتوة، وهو أمر جعل أهل السنة والجماعة يعملون بالقول الشائع «وداوتي بالتي كانت هي الداء» إذ كان هؤلاء يعتمدون بدورهم على ذلك النوع من الفتوة لمبارزة خصومهم المذهبيين في نفس الميدان ونفس الأسلوب والأدوات..

فلقد أخبرنا ابن جبير في رحلته، عند كلامه عما رآه في بلادنا (سورية الطبيعية المعروفة تاريخياً باسم بلاد الشام) من الفسيفساء الدينية والتجمعات المنتمية إلى الفرق والطوائف المذهبية فقال: «... وللشيعية في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عملوا بمذاهبهم، وهم فرق شتى؛ منهم الرافضة وهم السبائيون، ومنهم الإمامية والزيدية... إلى أن يقول: ... وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف «بالنسوية» سنيون يدينون بالفتوة، وبأمرور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها، يجزمون السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم لفتوة برّ بقسمه، وهم يقتلون هؤلاء السروافض أين ما وجدوهم، وشأنهم عجيب في الإلفة والائتلاف.

بل إن الحنابلة، الأصوليين، وجد تصلبهم المذهبي ترحيباً لدى الفتيان الذين كان التزامهم والتشدد في الدين يستهويهم ويشيرهم للعنف. ومن هؤلاء الفتيان كان يخرج المظاهرون والمشاغبون حين يشور الفقهاء الحنابلة ضد السلطة عندما يتهمونها بالكفر أو يرمونها بأنها غير متحمسة كما يجب في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بكل حزم وصرامة.

- الفتيان في مهب الزعامات الشخصية

ما كاد القرن السابع للهجرة يطوي عقده السادس

«قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ» (سورة الأنبياء، الآية 60)
ومنها قوله تعالى «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ».
(سورة الكهف، الآية 10)

[وأورد] من عمل الطاعات، واجتناب المآثم،
والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم
على الظالم، وإغاثة الملهوف، وحفظ الجار، وغير ذلك
مما يشترطونه في الفتوة؛ وقرئت هذه الخطبة بمحضر
من السلطان والأكابر، وكان القاضي بجاء يومئذ بهاء
الدين أبا اليسر بن موهوب، فأمره السلطان بلبس
سراويل الفتوة في المجلس، فلبسها ولبسوها
الجماعة.

- شرائط الفتوة

وللفتوة شرائط إذا توفرت في الشخص أمكنت
تفتيته، وإذا لم تتوفر حيل بينه وبين الدخول في عداد
زمرة الفتية. وقد حدد ابن المعيار الحنبلي نوعية هذه
الشرائط وعددها على النحو التالي:

- 1 - الذكورية. إذ أنها فطنة الكمال والشرف. أما
النساء فإنهن يتخذن مفرساً للذكور، وذلك ذل
وهوان. ولما كان الرجال قوامين على النساء،
لذلك استحقوا الاختصاص بالفتوة.
- 2 - البلوغ. لأن به يفترض اكتمال البنية الجسدية
وبه يحاسب الإنسان على التزام الطاعات،
واجتناب المعاصي مع المثوبة على الأولى
والعقوبة على الثانية، فلا يصح تفتية غير
المكلف شرعاً.
- 3 - العقل: إذ به يميز الإنسان الخير من الشر،
وهو الآلة لنا في إتقان أعمالنا، والاستهداء إلى
الخير، وتمييزه عن الشر للكتف عنه أو اجتنابه.
- 4 - الدين: إذ أن الدين أصل والفتوة فرع له، فلا
فرع من غير أصل، والفتوة لا يلزم بها الإيمان
بما يلزم به الشرع.
- 5 - استقامة الحال: أي أن يكون خلوقاً، لا غثاً

العالم الإسلامي في زمانه. وبالفعل استجاب الناس
لرغبة هذا الخليفة... فدخل الناس كافة، من
الخاص والعام في هذه الفتوة «الناصرية» وسأل ملوك
الأطراف «الفتوة» فأنفذ إليهم الناصر لدين الله الرسل
ومن ألبسهم سراويل الفتوة بطريق الوكالة نيابة عنه،
وانتشر ذلك ببغداد وتفتي الأصاغر والأكابر.

وأنفذ الناصر لدين الله سراويل الفتوة إلى ملك
بلاد الروم المعروفة اليوم باسم «تركية» وهو عز الدين
أبو المظفر كيكائوس ابن كيخسرو بن قلع أرسلان
الثاني المتوفى سنة 615 هـ (1218 م).
وهذا أول دخول الفتوة بلاد الأتراك.

وذكر بطرس غالي، في كتابه «الفتوة عند العرب»
الذي كتبه باللغة الفرنسية وطبع بباريس سنة 1919 م
ص 25. «إن الفتوة الناصرية» شاعت في مشارق
الأرض ومغارها حتى بلغت أوروبا، فقد نشرت
جريدة لوديبا (Le Debat) أن أحد أمراء المانية كتب
إلى خليفة بغداد - وهو الناصر لدين الله - يرجوه أن
يدخل في فتوته ويكون من زملائه وأتباعه!.. وفي
تأميم الفتوة وقصرها على «التنظيم الناصري» وحظرها
على ما سوى ذلك، يقول ابن واصل، صاحب كتاب
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» وهو يتحدث عن
سيرة الخليفة الناصر لدين الله:

«... وكان يميل إلى رمي البندق، واللعب بالطيور
المناسيب، ولبس سراويل النبوة والفتوة، وكتب سائر
ملوك الأطراف في أن ينتموا إليه في رمي البندق وفي
الفتوة، فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا الفتوة له،
وآدعوا له في رمي البندق، ووصل رسوله إلى حماه في
أيام الملك المنصور (ناصر الدين أبو المعالي محمد)
رحمه الله، وتقدم إليه بأن يلبس للخليفة سراويل
الفتوة ويلبس الأكابر له... فتقدم الملك المنصور بأن
يعمل خطبة في الفتوة، فعمل والدي - أي والد
واصل - رحمه الله خطبة بدعية في هذا المعنى،
واستشهد بآيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى:

ولا خُنْثَى، وليس فيه عيب يشينه أو يلحق به وصمة تخدش سمعته أو دينه.

6 - المروءة: وهي الاندفاع للمكرمات، والابتعاد عن المحرمات، وأهم مظاهر المروءة الحياء عن فعل القبائح.

نقول: إذا اجتمعت هذه الشرائط الستة في طالب التفتية قبل طلبه وتمت نسبته إلى جماعة الفتیان، وجرى عليه الشد والتكميل وشرب الماء المملح. وهذه المراسم هي كالتالي:

1 - الشد:

وهو مبدأ العهد وانعقاده، وسبب دخول الشخص في سلك الفتوة، والشد هو أن يعطى لطالب التفتية ما يشد به وسطه، ويكره أن يكون الشيء الذي يشد به شبيهاً بالزئار الذي يمده النصارى في أوساطهم عند صلاتهم في الكنيسة.

2 - التكميل:

وهو كمال العهد وتمامه، والمكمل هو طالب التفتية الذي يُعطى السراويل أو السلاح، إثمًا بعد الشد أو ابتداءً لصلاحيته كذلك عند الكبر، والسنة في التكميل بالسراويل. والسراويل عند الفتیان كالخرقة عند المتصوفة.

3 - الشرب:

وهو الماء المملح يشربه طالب التفتية علامة على استعداده لتحمل الحياة الشائكة والمرهقة التي تقتضيها الفتوة.

وبعد،

هذه سطور سريعة من تاريخ الفتوة التي عرفها الشرق العربي خلال العصر الوسيط. ولقد أصبح هذا التاريخ جزءاً من الماضي، بيد أننا في أيام نشأتنا الأولى، عندما كنا في ميعة الصبا وريعان

الشباب أدركنا ما تبقى من البصمات الدالة على هذه الفتوة على تقاليدنا المحلية يوم كان «الفتى» في بلدنا يعرف بالأسماء التالية:

1 - قبضاي، كلمة تركية معناها القوي الشجاع.

2 - زكرت: أصل هذه الكلمة فرنسية (Escorte) بمعنى حارس أو خفير وهو الشخص المكلف بحراسة أحد الرؤساء أو الأعيان وملازمته لهذه الغاية.

3 - قره داغلي: كلمة تركية مركبة من لفظتين:

قره، بمعنى أسود وداغلي بمعنى جبلي، وكانت تطلق على الرجل الشجاع الشديد الأسر تشبيهاً له بابن الجبل الأسود (في بلاد البلغار) الذي كان مشهوراً بالبأس الشديد.

4 - لا بالله قلبي: أصل هذا اللفظ المركب مصطلح عامي يعني أنا والله صاحب قلب، أي شجاع وقوي (والقاف تلفظ كالجيم المصرية).

5 - عمك خالك: أي الذي يخاطب الآخرين بكلمة يا عم ويا خال بطريقة الاستعلاء والإدلال بالشخصية القوية.

6 - زلة، ومعناها الرجل بكل ما في هذه الكلمة من معنى الرجولة.

7 - شيخ الشباب: أي رئيس جماعة القضايات أو واحد منهم.

8 - أبو الشباب، قرب من المعنى السابق.

9 - فتوة، بمعنى القبضاي، وجمعها فتوات.

10 - زول، بمعنى رجل صاحب شهامة وأريحية واندفاع وغيرة.

11 - الشبان، بمعنى القضايات. وكان أبناء جيلنا قبل نحو نصف قرن يطلقون على زعيم الشبان لقب «العقيد» بقاف كالجيم في لهجة أهل القاهرة.

المصادر

- الكامل - لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - ج 1 - 2 طبع مطبعة نهضة مصر - الناشر مكتبة مصر ومطبعاتها.
- الأغاني - تأليف أبي الفرج الأصفهاني - القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1935 م.
- كتاب الفتوة - تصنيف الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم المعروف بابن المعمار البغدادي الخنيلي المتوفى سنة 942 هـ - حققه ونشره الدكتور مصطفى جواد والدكتور محمد تقي الدين الهلالي والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور أحمد ناجي القيسي. مطبعة شفيق - الناشر، مكتبة المثنى - بغداد 1958 م.
- تاريخ الأمم والملوك - للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الناشر، المكتبة التجارية الكبرى - بمصر سنة 1357 هـ 1939 م.
- الإمام القشيري، سيرته - آثاره - مذهبه في التصوف، بقلم د. إبراهيم بسيوني - مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية (بالقاهرة) سنة 1392 هـ 972 م.
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار - تأليف دكتور حسن الباشا - ملزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية سنة 1957 م
- تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الاعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام - لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب السلماني، تحقيق وتعليق إ. ليفي برفنسال - دار المكشوف - بيروت سنة 1956 م.
- كتاب الجماهر في معرفة الجواهر - تصنيف الأستاذ أبي الرمان محمد بن أحمد البيروني المتوفى في عشر الثلاثين وأربعين من الهجرة، طبع ونشر عالم الكتب طبعة ثالثة سنة 1404 هـ 1984 م - بيروت.
- أهل الإسلام - لويس غاردييه، ترجمة صلاح الدين برمدا - مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق سنة 1981.
- (Louis Gardet - Les Hommes de l'Islam)
- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي - د. محمد رجب النجار - عالم المعرفة - الكويت شوال - ذو القعدة 1401 هـ - سبتمبر (أيلول) 1981 م.
- كتاب الفرج بعد الشدة - للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة 384 هـ.
- كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم - ألفه أبو منصور عبد القاهر بن قاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة 429 هـ، وقف على طبعه وتعليق حواشيه محمد بدر - مطبعة المعارف بمصر.
- كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تأليف أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ (1200 م) - طبع دار الثقافة - بيروت.
- رحلة ابن جبير - لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكثاني الأندلسي، الطبعة الأولى سنة 1326 هـ 1908 م - طبع بمصر بمطبعة السعادة.
- الفتوة عند العرب - تأليف بطرس غالي (بالفرنسية) طبع بباريس سنة 1919 م.
- مفرج الكرب في أخبار بني أيوب - للقاضي جمال الدين بن واصل الحموي المتوفى سنة 697 هـ، راجعه وقدم له الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - طبع بمصر سنة 1274 م.
- كتاب تجارب الأمم - لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. آمدروز - طبع بمطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر سنة 1333 هـ 1915 م.
- دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العمارية - تأليف محمد عبد الله عنان - الطبعة الثالثة، الناشر مؤسسة الخانجي بمصر سنة 1380 هـ 1960 م.
- مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس - تأليف عبد الكريم التواني نشر وتوزيع مكتبة الرشاد - الدار البيضاء - طبعة أولى سنة 1967 م.